الفصل الحادي عشر

الإنابة

من صدق في توبته أداه ذلك إلى الإنابة إلى ربه، والعبد المنيب هو الرجاع إلى الله تعالى في كل وقت المتقرب إليه بما يحب، ولما كانت التوبة إقلاعًا عن المعصية كانت الإنابة تتمة لها بالعمل الصالح والاجتهاد في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. يقول ابن القيم: فلا تنفع توبة وبطالة، فلابد من توبة وعمل صالح: ترك لما يكره وفعل لما يحب، تخلٍّ عن معصيته وتحلٍّ بطاعته[(١)].

معنى الإنابة

الإنابة لغة تدل على اعتياد مكان ورجوع إليه يقال: أناب فلان إلى الشيء رجع إليه مرة بعد أخرى قال ابن الأثير في النهاية: الرجوع إلى الله بالتوبة يقال أناب ينيب إنابة فهو منيب إذا أقبل ورجع[(٢)].

والإنابة اصطلاحًا: إخراج القلب من ظلمات الشبهات، وقيل: الإنابة الرجوع من الكل إلى من له الكل وقيل: الإنابة الرجوع من الغفلة إلى الذكر ومن الوحشة إلى الأنس[(٣)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: الإنابة الإسراع إلى مرضاة الله مع الرجوع إليه في كل وقت وإخلاص العمل له.

ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفوائد: الإنابة هي عكوف القلب على الله عَزَّوَجَلَّ كاعتكاف البدن في المسجد لا يفارقه وحقيقة ذلك عكوف القلب على محبته وذكره بالإجلال والتعظيم

---

(١) «المدارج» (١/ ٤٣٥)

(٢) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/ ١٢٣)، و«لسان العرب» (١/ ٧٧٤) ط. دار صادر.

(٣) «التعريفات» للجرجاني ص [٣٩]، و «الكليات» للكفوي [٣٠٨] نقلًا عن «نضرة النعيم» (٣/ ٥٤٠).

وعكوف الجوارح على طاعته بالإخلاص له والمتابعة لرسوله، ومن لم يعكف قلبه على الله وحده عكف على التماثيل المتنوعة كما قال إمام الحنفاء لقومه: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]. فاقتسم هو وقومه حقيقة العكوف فكان حظ قومه العكوف على التماثيل وكل عكوفه على الرب الجليل، فتعلق القلب بغير الله واشتغاله به والركون إليه عكوف منه على التماثيل التي قامت بقلبه وهو نظير العكوف على تماثيل الأصنام، ولهذا كان شرك عباد الأصنام بالعكوف بقلوبهم وهممهم وإرادتهم على تماثيلهم فإذا كان في القلب تماثيل قد ملكته واستعبدته بحيث يكون عاكفًا عليها فهو نظير عكوف الأصنام عليها، ولهذا سماه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبدًا لها ودعا عليه بالتعس والنكس فقال:

«تعس عبد الدينار والدرهم تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»[(١)(٢)].

ثمراتها وفضائلها

الإنابة عمل قلبي عظيم ينبع من تعلق القلب بالله وحده في كل حال من الأحوال ولهذه العبادة الكريمة ثمرات تدعو إليها وفضائل تحث على الحرص عليها وتحقيقها واقعًا وحالًا وليعلم أن حصول ذلك في القلب محض فضل من الله عَزَّوَجَلَّ وهو من أعظم أنواع الرزق التي يؤتاها عبد من عباد الله، ومن فضائلها ما يلي:

أولًا - في الإنابة استجابة وطاعة لأمر الله:

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]. أمر تعالى بالإنابة إليه والمبادرة إليها فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بقلوبكم ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ بجوارحكم، وإذا أفردت الإنابة دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما كما في هذا الموضع كان المعنى ما ذكر، وفي قوله ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ﴾ دليل

---

(١) رواه البخاري برقم [٢٨٨٧]

(٢) «الفوائد» ص [٢١٩-٢٢٠]، ط. دار إحياء الكتب العربية.

على الإخلاص وأنه من دون الإخلاص لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئًا ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ مجيئًا لا يدفع ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[1].

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

ثانيًا- المنيبون لهم من ربهم البشرى في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨]. هؤلاء أهل الإنابة الذين اجتنبوا عبادة الأوثان وأنابوا إلى عبادة الرحمن هم أهل البشرى في الدنيا والآخرة، وهم أهل الهداية الحقة والسبيل القدوم، انصرفت قلوبهم عن عبادة الأنداد والأصنام إلى عبادة الملك الأحد الصمد جَلَّ جَلَالُهُ ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات يقول السعدي: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ التي لا يقادر قدرها ولا يعلم وصفها إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء الحسن والرؤيا الصالحة والعناية الربانية من الله التي يرون من خلالها أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة.

ولهم البشرى في الآخرة عند الموت وفي القبر وفي القيامة، وخاتمة البشرى ما يبشرهم به الرب الكريم من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة[2].

ثالثًا- جزاء المنيبين جنات النعيم:

أهل الإنابة في الدنيا الذين تعلقت قلوبهم بربهم وثابت إليه وكانت رجَّاعة إليه في كل حين وآن وعاش أولئك الموفقون حياتهم طاعة لربهم وقربة إليه يبتغون رضاه، ويطلبون جنته ويحرصون على عمل كل ما يوصلهم إليها هؤلاء جزاؤهم جنة ربهم

---

(١) «تفسير السعدي» [٨٥٩].

(٢) المصدر السابق ص [٨٥٢].

قال الله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾ [ق: ٣١-٣٤].

رابعًا- الإنابة صفة خيرة الخلق وصفوة البشر:

هذه الصفة النبيلة الجليلة هي صفة أفضل الخلق الذين اجتباهم ربهم ورفع ذكرهم ورضي عنهم ورضوا عنه، ومن أراد الوصول إلى ما وصلوا إليه فليحرص بقدر استطاعته على ماحرصوا عليه وليعمل بمثل عملهم وليتبع سبيلهم ومن أهم ما امتدحهم به ربهم إنابتهم إليه قال الله تعالى عن الأنبياء: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ [هود: ٧٥].

وقال الله عن داود النبي صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤]. وقال تعالى عن سليمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٤-٣٥]، ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ أي: اختبرناه ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ لم يبين تعالى حقيقة هذا الجسد الذي ألقاه على كرسيه، فنحن نؤمن بأن الله اختبره بإلقاء الجسد على كرسيه ولا نعرف ما هو؟ وكل ما قيل حوله فهو من الإسرائيليات لا نعرف صدقه من كذبه والله أعلم ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أي بعد هذا الاختبار أناب إليه تعالى ودعا وطلب منه المغفرة وطلب حكمًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده[(١)].

وقال تعالى عن شعيب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]. وكان من دعاء رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفرلي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت**»[(٢)].

---

(١) «المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير» [١١٧٤].

(٢) رواه البخاري برقم [٧٣٨٥]، ومسلم برقم [٧٦٩] واللفظ له.

خامسًا- ما يتذكر إلا أهل الإنابة:

من فضائل الإنابة أنه لا ينتفع بالذكرى إلا أهلها، فيقبلون على محبة الله وخشيته وطاعته والتضرع إليه ذلكم هو الذي ينتفع بالآيات ويزداد بها بصيرة وهدى قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾.

[غَافِر: ١٣]

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [قٓ: ٧-٨]. وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

[سَبَإ: ٩]

سادسًا- الإنابة سبيل الهداية:

من أناب إلى الله آواه وهداه وحفظه وحماه، وسدده ووفقه واجتباه قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرَّعْد: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشُّورَىٰ: ١٣]. فأهل الإنابة حقيقون جديرون بهداية الله لهم وتوفيق الله لهم إلى ما يرضيه فمن استهدى بالله هداه ومن اعتصم به نجاه ومن فوض إليه الأمر كفاه؛ فليكن كل تعلقنا بربنا وكل إنابتنا إليه، اللهم اجعلنا لك توابين منيبين واغفر لنا أجمعين.

أنواع الإنابة

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: الإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ [الزُّمَر: ٣٣]. فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو الواقع وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ ثُمَّ

إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ [الروم: ٣٣-٣٤].

فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية هي إنابة أوليائه وهي إنابة لإلاهيته إنابة عبودية ومحبة وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له والإقبال عليه والإعراض عما سواه فلا يتحقق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع[(١)].

أولًا - الإنابة إلى الربوبية:

الخلق كلهم مفطورون على اللجأ إلى الله عَزَّوَجَلَّ لاسيما عند الشدائد، فالمشرك ينيب إلى الله تعالى إذا مسَّه الضر والبأس فإذا نجاه الله عَزَّوَجَلَّ عاد ذلكم المشرك إلى شركه وكفره مرة أخرى كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وكما قال جل ذكره: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣-٥٤]. وكما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨]. ومما ورد في ذلك المعنى ما ذكره أبو داود والنسائي عن عكرمة بن أبي جهل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لما كان يوم فتح مكة هرب عكرمة فركب البحر، فأصابهم عاصف فقال أصحاب السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم هنا شيئًا فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص فلا ينجيني في البر غيره، اللهم لك عليَّ عهد إن عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا حتى أضع يده في يدي فلا أجدنه إلا عفوًا كريمًا فجاء فأسلم[(٢)].

---

(١) «تهذيب المدارج» [٢٣١-٢٣٢].

(٢) رواه النسائي برقم [٤٠٦٧]، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم [١٧٢٣].

وفي هـذا المعنى يقول الدكتـور عبد الكريم زيدان: أذكر أني كنـت أقرأ في مجلة كانت تصدر أيام الحرب العالمية الثانية حديثًا لصحفي أجراه مع أحد الطيارين وقد سأله الصحفي عن أحرج الساعات التي مرت به أثناء قيامه بواجبه وما كان شعوره في تلك الساعة الحرجة، فأجابه الطيار بأنه نشأ في بيت ليس فيه ما يذكر بالله، فقد كان أبوه ملحدًا ونشأ على الإلحاد فنشـأ عـلى إنكار كل شيء عدا مـا يراه بعينه أو يلمسـه بيده، وفي أثناء قيامـه بأعماله الحربية أحس أن طائرته توشك أن تسقط وأن الهلاك محتم، قال: في تلك الساعة الحرجة لم أفكر في شيءٍ على الأرض من أهل أو قريب أو صديق أو زوجة وإنما رأيت نفسي وبلا شـعور مني متوجهًا إلى الله هاتفًا باسـمه طالبًا العون منه؛ وهكذا كان فقد نجوت بأعجوبة والفضل في ذلك كله لله وحده الذي لم أفكر فيه قط منذ ثلاثين سنة وهي عمري الآن.

يقـول الشـيخ معلقًا عـلى ذلك: إن هذه القصـة صحيحة على ما أعتقـد إذ لاداعي لتلفيقهـا بـل وإنها تتكرر في كل يـوم مئات المرات بأشـكال أخرى، إن الإنسـان الغافل الناسي الذي لا يخطر بباله الله تعالى يجد نفسه مدفوعًا إلى التوجه إلى الله تعالى كلما ألمت به مصيبة أو وجد نفسـه في ضيق، فالمريض الراقد في سريره أو في غرفة العمليات، وراكب الطائـرة الـذي يخـبره قائدها أن خطرًا يواجـه الطائرة هؤلاء لا يفكرون في تلك السـاعة بـشيء ولا يخطر ببالهم شيء سـوى الله، به يسـتجيرون وإليه يتوجهـون[1]، وهذه الإنابة عامة لجميع الخلق بلا استثناء.

ثانيًا- الإنابة للألوهية:

هـذه هي إنابـة التعبد لله والاسـتجابة لأمره، وتكـون للصالحين من عبـاد الله من الأنبيـاء والأوليـاء والمؤمنين، وتلـك هي التي امتدحها الله تعـالى في المخلصين من خلقه وأثنى عليهم بها وفي ضمن هذا المدح والثناء دعوة للاقتداء بهم والاتصاف بما مدحه الله فيهـم وقد قال تعـالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ [لقمان: ١٥]. إنها التعبد لله بما أمر في كتابه

(١) «أصول الدعوة» للدكتور عبد الكريم زيدان ص [٢٢] ط. مؤسسة الرسالة.

وعلى لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والانتهاء عما نهى عنه الله ورسوله، ودوام اللجوء إلى الله في كل حال وقصد وجهه سبحانه بكل طاعة وقربة وعمل وسوف أذكر لها أمثلة بإذن الله تعالى والمقصود الآن بيان أن هذه الإنابة تتضمن الحب لله والخضوع له، والإقبال عليه والإعراض عن كل ما سواه، يقوم من فراشه الدافئ الوثير ليعالج برودة المياه وليقف في الصلاة ودافعه إلى ذلك حبه لله، وقد يريد المرء أن يشبع رغبته ويروي غريزته ولكن ذلك لا يتأتى إلا بمحرم كمعاقرة زنا أو أكل ربا أو قبول رشوة وغير ذلك لكنه يترك كل هذا وغيره خضوعًا لربه واستسلامًا لأمره وتنفيذًا لحكمه، ثم هو ملتفت بكل قلبه إلى ربه لا يشغله عنه شيء، ولا يسيطر على عقله وقلبه شيء، وإنما كل همته مصروفة إلى ما يرضي ربه، كل رغبته أن يسعى في طاعة خالقه وفاطره سبحانه ففي الصلاة نجد سعيد ابن المسيب سيد التابعين وأعلمهم[1]، يقول: ما دخل عليَّ وقت صلاة إلا وقد أخذت لها أهبتها ولا دخل عليَّ قضاء فرض إلا وأنا إليه مشتاق.

وعن ابن حرملة عن سعيد بن المسيب أنه اشتكى عينه فقالوا: لو خرجت إلى العقيق فنظرت إلى الخضرة لوجدت لذلك خفة قال: فكيف أصنع بشهود العتمة والصبح.

وهذا الربيع بن خثيم يقول: إني لآنس بصوت عصفور المسجد عن أنسي بزوجتي، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ما سقط شقه يهادى بين رجلين إلى المسجد وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقولون له عند ذلك: يا أبا يزيد، لقد رخص الله لك لو صليت في بيتك فيقول: إنه كما تقولون ولكني سمعته ينادي حي على الفلاح فمن سمع منكم حي على الفلاح فليجبه ولو زحفًا ولو حبوًا.

---

(١) ولكن أفضل التابعين هو أويس بن عامر القرني كما صح بذلك الحديث في «صحيح مسلم» عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا عامر بن عبد الله بن الزبير سمع المؤذن وقد كان عامرٌ يجود بنفسه وفي مرضه الأخير فقال: خذوا بيدي فقيل: إنك عليل قال: أسمع داعي الله فلا أجيبه؟! فأخذوا بيده فدخل مع الإمام في المغرب فركع ركعة ثم مات.

وهذا الثوري يقول عنه ابن الفضيل رحمهما الله: رأيت الثوري ساجدًا فطفت سبعة أشواط قبل أن يرفع رأسه. وسير السلف في هذا الباب وغيره من العبادات تفوق الحصر، والشاهد أن الإنابة للألوهية معناها صرف العبادات كلها الظاهرة والباطنة إلى الله تعالى مع التعبد له عَزَّوَجَلَّ بها حبًا ورجاء وخشية وإنابة، وترك كل ما نهى عنه الله ورسوله خشية لله ومراقبة له وتوقيرًا لأمره وحكمه.

كفى بك عزًا أنك له عبد وكفى بك فخرًا أنه لك رب

قدوات على درب الإنابة

ها هو النبي الكريم، المنيب الأواه الحليم، خليل الرحمن إبراهيم، يقضي حياته كلها عبودية لربه ولسان الحال: من اختار الله على من سواه اختاره الله على من سواه، وخذ مشهدًا واحدًا وذلك حينما مكر به جنود الباطل، وسدنة الكفر والضلال، اشتعلت قلوبهم غيظًا عليه وضيقًا بدعوته وأرادوا أن يثأروا لتلك الحجارة التي يعبدونها من دون الله تعالى أوقدوا للخليل نارًا عظيمة وأججوها وسعروها وأشعلوها ثم قذفوا بإبراهيم فيها ولكن إلى من يلتفت وإلى من يلجأ وإلى من يتوجه إن قلب إبراهيم ما عرف إلا التوحيد وما امتلأ إلا بالإنابة إلى العزيز الحميد وكان قدوة للخلق في ذلك نعم ما التفت إبراهيم إلى بشر ولا إلى سبب، بل قالها خالدة باقية، خالصة منيبة «**حسبي الله ونعم الوكيل**» روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان آخر قول إبراهيم حين ألقي في النار: «**حسبي الله ونعم الوكيل**»[1]. ومن كان الله حسبه كفاه ونجاه وحفظه وحماه حتى لو اجتمع على الكيد به كل الكائدين والماكرين: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ

(١) رواه البخاري برقم [٤٥٦٤].

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤]. قال الله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧١].

وها هو نبي الله يعقوب صلوات الله وسلامه عليه حينما فقد فلذة كبده وولده الحبيب يوسف ما كان منه إلا أن قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨]. ثم يطول الزمان على فقد يوسف ويزداد الكرب وتعظم المحنة ويشتد البلاء حينما يفقد ولده الثاني شقيق يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ما كان منه إلا أن قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٣-٨٦].

وها هو نبي الله يونس بن متى صاحب الحوت وذو النون حينما ذهب مغاضبًا والتقمه الحوت وصار في تلك الظلمات هتف قلبه وجوارحه بالإنابة إلى ربه واستغفر ربه منيبًا إليه حتى نجاه الله من الغم وكشف عنه الكرب قال الله تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨]. لما أقر لله بكمال الألوهية ونزهه سبحانه عن كل عيب ونقص وآفة واعترف بظلم نفسه وجنايته نجاه ربه حين آب إليه ورجع إليه وأناب قال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

وها هو طالوت ومن معه من المؤمنين حينما التقى بجالوت وجنوده كان عدد هؤلاء الجنود كبيرًا كبيرًا حتى قالت طائفة من المؤمنين ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ ولكن أهل الإنابة دومًا موفقين مسددين لاسيما إذا صدقوا في إنابتهم لرب العالمين وتبرؤوا من كل حول ومن كل قوة إلا من حول الله وقوته، قال الله تعالى:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٤٩-٢٥١].

وها هو نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسطر بحياته كلها أصدق صفحة للعبودية لله وأعظم قدوة يقتدي بها السائرون إلى ربهم جَلَّ جَلَالُهُ يقول ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن مشهد النبي في الهجرة حينما أحاط به المشركون ووقفوا أمام باب الغار، وكل ما يريدونه قتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه، وكل ما يعملون له وأد الدعوة الناشئة باغتيال رأسها، وها هم واقفون أمامه ما بينه وبينهم إلا خطوات ولكن من كان في حفظ الله فلن يستطيع مخلوق ضره، ومن كان في معية الله فهو المحفوظ المصان المنصور المعان المؤيد المسدد:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالحوادث كلهن أمان

يقول الله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]. يقول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال: «**ما ظنك يا أبا بكر باثنين**

الله ثالثهما»[١]. وفي غزوة بدر قام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعوه ويستفتحه ويستنصره على القوم الكافرين كما في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد» فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك فخرج وهو يقول: «سيهزم الجمع ويولون الدبر»[٢]. وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح[٣].

وصحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما يخبرون بعدد الجموع الكافرة الملتهبة المتأججة التي جاءت لاستئصال شأفة المسلمين وإبادة خضرائهم ويصل تعدادهم إلى عشرة آلاف مقاتل يجمعهم الكفر والحقد والغيظ أخبر الصحابة بذلك فما كان منهم إلا إنابة إلى ربهم وتوجهًا إليه وتوكلًا عليه كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤]. وروى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين ألقي في النار، وقالها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قالوا: «إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل»[٤].

التقى خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالروم وظن أن عدد الروم يتناسب مع جيشه الذي كان عدده اثنين وثلاثين ألفًا ولكن جيش الروم كان عدده مائتين وثمانين ألفًا وفي الصباح أقبلت كتائب الروم تتهدَّر، وقبيل المعركة قال أحد المسلمين لخالد: يا خالد، ما

---

(١) رواه البخاري برقم [٣٦٥٣]، ومسلم برقم [٢٣٨١].

(٢) رواه البخاري برقم [٣٩٥٣].

(٣) رواه أحمد [١٠٢٦]، وابن خزيمة (٢/ ٣٥)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» ص [٣٣٣٠].

(٤) رواه البخاري برقم [٤٥٨٦٣].

أكثر الروم وأقل المسلمين، اليوم نفر إلى جبلي أجا وسلمى فدمعت عينا خالد وقال: بل إلى الله الملتجأ قل: ما أكثر المسلمين وأقل الروم! لوددت أن الأشقر براء من توجيه[1] وأن الروم أضعفوا العدد، وما أتت ثلاثة أيام إلا وقد أوقع خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الروم في كربة وانتصر عليهم بإذن الله.

درجات الإنابة

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في طريق الهجرتين: الإنابة: الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه وهي تتضمن المحبة والخشية، فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة.

فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد والحامل عليها العلم والخشية والحذر.

ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده، وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات وهذه الإنابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله وهؤلاء أبسط نفوسًا من أهل القسم الأول، وأشرح صدورًا، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحدٍ من الفريقين منيب بالأمرين جميعًا، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم: المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء والافتقار والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة فأنزلوا به حوائجهم وعلقوا به آمالهم فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي ولكن إنابتهم الخاصة إنما هي من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة وأملهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار كحال الذين قال

(١) أي: مرضه.

الله في حقهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه إلى مألوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق فهي ملتفتة إلى غيره ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له[١].

أعلى درجات الإنابة:

أعلى أنواع الإنابة إنابة الروح بجملتها إليه لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عن سوى محبوبهم ومعبودهم، وحين أنابت إليه أرواحهم لم يختلف منها شيء عن الإنابة؛ فإن الأعضاء كلها رعيتها وملكها تبع للروح فلما أنابت الروح بذاتها إليه إنابة محب صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه؛ أنابت جميع القوى والجوارح فأناب القلب أيضًا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار، وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه وتسليمه لها وتحكيمه إياها دون غيرها فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها، وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة وانقادت للأمر خاضعة له، وداعية فيه مؤثرة إياه على غيره: فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضًا إلى مولاها ورضىً بقضائه وتسليمًا لحكمه[٢].

من الأسباب المعينة عليها

أولًا- كثرة الذكر والتسبيح والمداومة على ذلك:

في الذكر طمأنينة القلب وسكينة النفس وراحة الروح وزيادة الإيمان وقوة الأبدان ومن ثمرات الذكر حصول الإنابة في القلب وامتلاء الفؤاد بمعانيها يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) «طريق الهجرتين» [١٨٦]، ط. دار الفجر.

(٢) المصدر السابق [١٨٧].

في تعداد فوائد الذكر: الحادية عشرة- أنه يورث الإنابة وهو الرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه في كل أحواله، فيبقى الله عَزَّوَجَلَّ مفزعه وملجأه، وملاذه ومعاذه، وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا[1].

ثانيًا- دوام التضرع وإتقان العبادة:

الإنابة من الإيمان تزيد بزيادته وتنقص بنقصانه وكلما أكثر العبد منها ازداد له حبًا وازداد له تسليمًا وعبودية وإنابة، قال الله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [الأعلى: ١٩]. وفي الحديث القدسي: «**وما تقرب إليَّ عبدي بشيءٍ أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»[2]. وكذلك الدعاء الدائم والتضرع المستمر والتملق لله عَزَّوَجَلَّ والتذلل بين يديه لاسيما في الخلوات والانطراح على عتبات الذل والانكسار والمسكنة والافتقار واستشعار العبد لمدى حاجته وفقره وضعفه وعجزه وكمال غنى الله عَزَّوَجَلَّ عنه كل ذلك يدفعه للإنابة والمسارعة إليها.

ثالثًا- التدبر والتفكر في آلاء الله وآياته:

إذا تفكر المرء وتدبر في عظيم إنعام الله عليه، وعجيب لطف الله به، استدعاه ذلك لسرعة الاستجابة لأمره والإذعان لحكمه: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

---

(١) «الوابل الصيب» [٦٢] ط. الريان.

(٢) رواه البخاري برقم [٦٥٠٢].

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦-٨]. الذكرى توجب الإنابة والتذكر والتفكر يحث عليها ويدعو إليها، اللهم اجعلنا لك منيبين مخبتين أواهين توابين.

obeikandl.com